

## في رواية « الثلج يأتي من النافذة »

# الاختفاء وحالتك نضاليتك

## بقلم محمد الجزائري

لذلك البطل - فياض .. فبطل عبد القدوس مفامر ، فوضوي النزعة، يؤمن بالاغتيالات السياسية كطريق اوحده لمواجهة المحتلين .. صحيح ان نجيب محفوظ تناول في « الشحاذ » شخصية مناضل مختلف ايضا لكنه لم يكرس لها كل مساحة الرواية ، كشخصية محورية ، كما هو الحال في « سعيد مهران » اللص والكلاب ..

لذا ، فأنا سنتناول ، هنا ، الاختفاء كحالة نضالية واجهها « فياض » خلافا لمعتقد الاستاذ فاضل السباعي الذي يعتبر الاختفاء هروبا من ساحة النضال (1) .. كيف ولماذا ؟

ثمة تعريف للسياسة بأنها « فن الممكنات من الامور » ، والكتاب المعارض حين يتحول الى سياسي ، يمارس في النضال السري ، حالة اختفاء ، فهو هنا يمارس الممكن من الامور لخلق الضروري .. ، وهو لا يمكن ان يكون - بالضرورة - كاتباً معارضاً .. فان الانخراط في العمل السياسي هو الذي يكسب شخصية البطل الصفة النضالية ، وبظل بعد ذلك الجانب الآخر من شخصيته ( كونه كاتباً معارضاً ) ذا تأثير في مساره النضالي بالانسجام مع مجمل نشاطاته النضالية .. لذا فسأن كتابة منشور سري ، او مقالة باسم مستعار ، او اي نشاط آخر ، هو اسهام في المجرى العام النضالي ، للحركة السياسية التي ينتمي اليها البطل فياض ..

و « التواري في بيوت الاصدقاء ، انقاء الاعتقال » حالة صحية للمناضل ، وليس « نضالا مفقودا » .. لان التفریط بأي مناضل ، موقف سلبي تتحمله الحركة السياسية كلها ، وبالتالي فهو خسارة لهذه الحركة مهما كانت درجة تقدم المناضل فسي تسلسله التنظيمي وسعة مسؤولياته ..

والعمل السري ، لا يعني عدم التحرك والنضال « على الطبيعة » ، فوضع « فياض » في « قبو يحتوي على مطبعة سريسة تقوم بطبع المنشورات السرية » هو حالة نضالية دقيقة ، وحساسة ، ومهمة ، لان اجهزة الحزب الفنية ، في العمل السري ، هي من أهم الاجهزة خطورة وحساسية ، وهي من اكثر ما تبذل السلطات الرجعية من جهد فسي البحث عنها وتصفية كادرها ، لذا فليس عفويا اختيار الكادر السذي يعمل بها او يشرف عليها ، فاختيار المناضل لمشغل هذه المهمة ، هو الاختيار الصعب ، عادة ، لان طبع منشورات الحزب السرية ، هو الرئة التي تتنفس منها الحركة السياسية ، فكربا ودعائيا ، فسي ظروف المسف والاضطهاد والملاحقة وخنق الحريات الديمقراطية او غيابها ..

حين كان ، في بغداد ، يتحدث لي عن ذكرياته واسفاره ، وعوالله في « الصين الشعبية » وغيرها ، ومجمل ذكريات حياة المنفى ، كنت ابتمس ، وانا اصغي باهتمام ، لتلقائته وطيبته وحيه لذكرياته .. اذ كنت اعتقد ، ولا زال اعتقادي قائما ، بأن حنا مينه سيحول تجربته الحياتية هذه الى عمل روائي ، او انه - في الحد الأدنى - يستفيد منها ، كجزء من لوحات عمل روائي جديد ..

كانت « الثلج يأتي من النافذة » قد صدرت توا ، .. فاهستت انه حين يتحدث عن ذكرياته .. فهو ، يتحدث ، كما تحدث مارون عيود عن روايته « فارس آغا » ، بمحبة وشوق .. والسبب - كما يقسول حسين مروة - : « كانت علاقته ليست علاقة المؤلف بما يكتب وحسب ، بل هناك قضية اعماق من ذلك والصق بنفسه وحياته ، هي انه عاش عمره الاول وهو واحد من هذه الاشياء والاشخاص والحيوات ، وعاش عمره الثاني وهو يستعيدهما لا كذكريات بل واقعات يحيا بها من جديد ، كما حياها اول مرة » ..

وفي العمل النضالي السري ، يشكل الاختفاء حالة نضالية ، في التمرس العملي والنشاطية الاجتماعية ، العامة .. ففي الاختفاء تتدافع الذكريات ، بتدفق حار ، على المناضل ، وتنمو وتتسع في ذهنه لدرجة الاحاطة حتى بتفاصيل صغيرة ، صغيرة ، لتشكّل ، بعدئذ ، وعبر تحويلها الى عمل ادبي - وحدة عضوية لجميع التناقضات المتصارعة في اطار ظروفها الزمانية والمكانية الخاصة - وعبر فهم هذه الوحدة ، يتم فهم - طبيعة الاحداث وتربطها ترابطا عضويا فسي صلوات الزمان والمكان ، وصلات الناس والاشياء وانتظامها كلها فسي هذه الوحدة العامة .. -

وفي « الثلج يأتي من النافذة » رواية الاستاذ حنا مينة الثالثة - بعد « المصابيح الزرقى » صدرت عام ١٩٥٤ ، و « الشراع والعاصفة » صدرت عام ١٩٦٦ - تكون حياة البطل « فياض » في الاختفاء ، نموا واتساعا لتلك الصلوات في « شبه حركة تسلسلية » قد لا تعطي النتيجة الواضحة منذ الوهلة الاولى ، لانها « تتأبى على الرؤية الصريحة » احيانا ..

وهذه الرواية تأتي في تناولها ، جديدة ، في الادب العربي الحديث .. لو استثنينا « في بيتنا رجل » لاحسان عبد القدوس ، التي كان البطل فيها - مختفيا ايضا ، مع الفارق بين الطبيعة النضالية

١ - راجع الآداب العدد الثالث اذار ١٩٧٠ ص ٦٥ : البحث عن « النضال » المفقود في رواية « الثلج يأتي من النافذة » دراسة ونقد بقلم فاضل السباعي ..

خاصة وان جريدة الحزب تشكل في مثل هذه الحالة « منظما جماعيا »  
.. لذا فاختيار فياض لهذه المهمة جاء توافقا سليما لحالته العامة التي  
تريد العمل « على الطبيعة » وهي حالة نضالية ، من ادق الحالات  
واشقاها واكثرها خطورة ، والتقليل من اهميتها هو جهل واضح  
لطبيعة العمل السياسي السري ، بالتأكيد ..

وباعتقادي ان الصفة الاخرى « الكاتب المعارض او الفنان او  
الاستاذ الجامعي او العامل الفني ، او غيرها .. » التي تميز المناضل ،  
قبل خوضه العمل السري ، في حالة الاختفاء ، لا تعني عدم تحيبيه  
« الى نفوس الجماهير » ان هو تخلى عنها ، لضرورات الاختفاء ، اذ ان  
عضو الحزب الثوري يذوب وينخرط في مجمل العمل المعارض ، حتى  
لو كان يمارس مهمة بسيطة داخل خلية مرشحين ، فسيظل ، حتى في  
مثل هذه الحالة ، ذلك « البطل الحقيقي الذي يجتسرح الخوارق  
وينافح عن مثل غالبية ..

ان النضال ، على اية ارض ، يلتحم بمعطيات الحركة الثورية في  
كل مكان .. واننا اذا تجاهلنا هذه الحقيقة - كما تجاهلها اعلامنا  
العربي طوال عمره المديد ! - وبخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية  
- مثلا - فاننا لن نحقق تقدما في كسب عنصر واحد من عناصر الراي  
العالم لتعميق فناعته بعدالة قضيتنا ..

لذا ففي فهم معطيات النضال ، والعمل السري والاختفاء بخاصة  
كحالة نضالية يكون المرتكز الاساس لفهم مجريات « الثلج يأتي من  
النافذة » وخلاف ذلك يسقط الناقد في الفهم الميكانيكي للعمل  
النقدي ..

ان الناقد الاستاذ فاضل السباعي - وهو روائي سوري ايضا -  
لم تتوافر له - مع الاسف الشديد - الحساسية الذاتية القادرة على  
اكتشاف القيم الخاصة في حالة الاختفاء ، لانه - كما قدر لي - لم  
يتبع « منهجية نقدية » ذات اساس ، موضوعي ، في احكامه وتقديراته ،  
وحتى عواطفه !

فماذا ترى « المنهجية النقدية » في العمل الادبي ، يا ترى ؟ ..  
ترى « المنهجية النقدية ان كل عمل ادبي لا بد ان يحتوي نوعا من  
التجربة التي لا تتكرر عند فنان آخر ، بل لا تتكرر ، حتى في عمليين  
صادرين عن فنان واحد .. » وهي « لا تقتصر على عدم انكار القيم  
الخاصة في العمل الادبي ، بل هي ترى ضرورة وجود هذه القيم ما  
دامت الشخصية الانسانية ذاتها ، وبوجه عام ، متنوعة الخصائص ،  
متعددة الجوانب ، بقدر تنوع الشخصيات وتعددتها » .. (٢)

ولكي نعطي موضوع الاختفاء كحالة نضالية ، دلالتسه الواضحة ،  
لا بد من التعرف على القيم الخاصة في « الثلج يأتي من النافذة » ،  
بل وفي « الشراع والعاصفة » - من باب المقارنة بين ( عمليين صادرين  
عن فنان واحد ) .. فالاختفاء كحالة نضالية لم تتكرر عند الفنان  
نفسه في اعماله الروائية ، ولم تتكرر - كمحور اساس لموضوع  
الرواية - عند الكتاب العرب ، الا في « في بيتنا رجل » كما اشرفنا ..  
فما هي السمات العامة لمنهج حنا مينه الروائي ، ما هي تناولاته ،  
وطبيعة طرحه للشخصيات وللنحارب ..؟ لنعمق بذلك دلالة الاختفاء  
كظاهرة نضالية ..

اولا - في « الشراع والعاصفة » يبدأ حنا بهذه العبارة :  
« المسافة بين العين ومرمى البصر ليست المسافة الوحيدة للرؤية ،  
وليست كذلك المسافة الاكثر طولاً او بهجة » ص ١١ .  
في هذا التحديد الفلسفي يبدأ حنا رواية البحر والرجال  
والارادة ، وهو لا يشغل نفسه بمعطيات ونقاشات فلسفية تستغرق  
صفحات ، بل نراه يبرج في الاسطر الاخرى مباشرة السى وصف  
الشاطيء ، والرمل ، واللاذقية ..

٢ - حسين مروة : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي -  
مكتبة المعارف بيروت .

لكنه بدأ حيث تبدأ الكلمة ، من منطلق : ففي البدء كانت الكلمة .  
وهي هنا لم تكن بعزل عن الواقع الموضوعي ، بل انعكاسا له ، وبهذا  
فقد وضع النتائج ، قبل الاسباب ، ليربطها في ختام الرواية بذات  
المعطيات .. - من البحر .. والى البحر - ولكن وفق المنطق الآتي : ان  
نكون ، فكما يجب .. والا فاننا نسعى لتكون كما يجب .. هذا الشرط  
الحياتي الذي يحمل العزيمة والارادة عند « الطروسي » للعيش  
الافضل ..

اما في « الثلج يأتي من النافذة » فهو لا يكرر البداية ولا المنطق ،  
ولا المنطلقات ، لكنه يعمق ويؤكد ذات النتائج : الشرط الحياتي لارادة  
العيش الافضل :

( حين رآته مقبلا صاحت :

- الم يوقفوك بعد ؟ )

بهذا التكثيف الحركي ، للواقع ، منحنا حنا ، البعد النفسي  
والحياتي للبطل ، منذ الوهلة الاولى ، وراح يوسع من هذا البعد  
وينميه ويطوره حتى غادر فياض بيروت - عائدا - الى دمشق ، من ذات  
الدرج الذي جاء منه - من الوطن .. الى الوطن . ولكن بنفس مناعة  
الطروسي ، ونفس ارادته : ان يعود مناصلا كما يجب ..

فحنا ، هنا ، صمم العمل بذهنه جيدا . ووضع البداية ، كما  
وضع النهاية ، بشكل مدروس ومقنن ، فهو قد اعتمد من القواعد  
الكلاسيكية للرواية : ( الحادثة ، او الحوادث المتسلسلة ، فالجبكة ،  
فالعقدة ، فحل العقدة ، فالنهاية الحتمية ) واعتمد من اساس الرواية  
الحديثة : ( المنولوج الداخلي ، واختفاء شخصية المؤلف .. ) كمتدخل  
واضح في نمو وتطور وحوار الشخصيات والاحداث .. وهذا العمل  
بالطبع ، ينبغي تهمة اعتبار « الثلج .. » عملا غير روائي !

ثانيا : اعتمد حنا مينه العودة الى الاصول كلازمة لعمله الروائي ..  
ففي « الشراع والعاصفة » كان الطروسي بحارا .. فعاد للبحر من  
جديد ، ولكن ك « ريس » له مهابة .. وك « ريس » « على الطبيعة »  
ايضا ..

وفي « الثلج » كان فياض مناصلا في دمشق ، ثم عاد الى دمشق  
ليمارس النضال هناك « على الطبيعة » ايضا ..  
وهذه المعادلة تقابل معادلته الاولى في العودة ولكن بالارادة  
الافضل والعيش الافضل والاوفر كرامة .. فاذا كان في المعادلة الاولى  
يثبت العودة المكاني : البحر في « الشراع » ودمشق في « الثلج » ..  
فهو يتم معادلته الاولى بثانية يحقق فيها العودة الارادية : البحر  
في « الشراع » ، والمناضل على الطبيعة في « الثلج »

ثالثا : عنصر المواجهة ، لدى بطل حنا ، لم يضم .. حتى في حالة  
عدم ممارسة « شكل » العمل المطلوب .. فالطروسي كان صاحب مقهى  
على البحر ، لكنه ظل يعيش حالة الابحار ، ووضع التجار ، في مواقفه  
التي ينتصر فيها لعمال البحر ضد ابي رشيد ومدير الميناء وغيرها ..  
ثم في مجمل تحركاته وتصرفاته : ضد صالح برو .. ومع « الرحموني »  
ضد الطبيعة الظالمة ، ومع تجمعات مستعمر اذاعة برلين والتنظيمات  
المعادية للاحتلال ضد المحتلين والامبراليين عموما ..

فمع ان الطروسي كان « بعيدا » في « الشكل » - عن ممارسة  
مهنته المباشرة كبحار .. لكن فروسية البحار لم تضم عنده ، في كل  
تصرفاته واعماله حتى عاد للبحر ..

وفياض في « الثلج » كان يواجه السلطة الرجعية في لبنان ..  
كان ضدها ، لا لانها بدأت المعركة معه - حسب - بل لانها تخدع  
- ايضا - المصالح المعادية للطبقة العاملة ولجماهير الشعب الكادحة  
التي كان فياض معها ..

اذن فهو يواجه نفس معطيات العدو المشترك وقد تكون نفس  
اساليبه .. ومع انه كان في حالة اختفاء - لكنه اختفاء واع ..  
اختفاء منظم ، لا يقل اهمية عن العمل النضالي « على الطبيعة » وبشكل

علني الذي كان يمارسه خليل غزالة في العمل النقابي ولجنة اضراب عمال البرق ، لذا فان فياض تخطى حالة السلب في الاختفاء - حين انخرط في العمل كأجير في « مطعم النجيل » ومع عمال البناء وفي « مصنع المسامير » . وكانت شخصيته تنمو ، وتتغير ، وتتنامى ، وتتوتر ، تبعا للاحداث ، وانعكاساتها ، حتى تفجرت لديه في الختام ، وعاد الى دمشق وهو يصرخ « ابدا لن اهرب بعد الان ! » .

لقد كان فياض يعيش صراعا حادا مع نفسه والاشياء المحيطة به ، ورغباته ، وطموحه ، وذكرياته التي تداعى كمنولوج حاد ، ملون ، يفرق ذهنه بصور شتى . .

رابعا : ان روايتي حنا : « الشراع » و« الثلج » تتسمان بالتسجيلية المشذبة - كما كانت « المصاييح الزرق » ايضا في تسجيليتها ولكن غير المشذبة - لحد ما . . وتتسمان كذلك بشفافية محببة الى النفس ، وهي قريبة للوثائقية الامينة في واقعتها ، لكن حنا لا ينقل صورة الواقع كما هي ، بل انه يحاكي نشاط الواقع . .

وهو هنا في محاكاته لنشاط الواقع ، لا يقدم نسخة منقولة من خلال ورق شفاف او طبع صورة منه ، بل المشاركة في البناء اغلاق للعالم الذي لا يزال في طور التكوين مع اكتشافه ايقاعه الداخلي « - كما يقول روجيه غارودي - فواقعية حنا هي التي « تعرف بالاعمال ، لا قبل الاعمال » لذا فان سلوك فياض لم يكن مفتعلا ، ولا يمكن لحنا ان يفتعل ، لديه ، حوارا ونقاشات ليبرهن من خلالها ان فياض كان كاتباً معارضا ولما يزل ، بل ان تلقائية مسار الرواية قدمت لنا فياض مناضلا طيبا وبسيطا وغير معقد ، قطعا . . وأشارات ولحات عرفناه ادبيا ، وكاتباً قصصيا ، ومعارضا . . لذا فعنا ، هنا فنان ، مارس حريته ، كما مارس فياض حريته ، بوعي واقعه لا بافتعال هذا الواقع : « فالفنان لا يرسم الواقع كما هو ، مستقلا عنه ، وبلا مشاركة فيه ، لانه غير مكلف فقط بتقديم تقرير عن نتيجة المعركة بل انه واحد من المناضلين ، له نصيبه من المبادرة التاريخية ومن المسؤولية وهو مطالب ، ككل انسان آخر ، لا بالاكتفاء بتفسير العالم ، ولكن بالمشاركة في تغييره . . » (٣)

وفياض فعل ذلك ، واسهم فيه بوعي . . كذلك « الطروسي » في « الشراع والعاصفة » . .

وإذا كان اتهام « الثلج » بانها بحث عن « انضصال المفقود » فهذا الاتهام مردود . . لانه ينطلق من نظرة خاطئة في فهم الواقع وتحرك الشخصيات او نمو الاحداث ، انه ينطلق من نظرة فونترافية للواقع وللهم الروائي . .

وهذا جهل لمهمة الفنان التي تختلف بالطبع عن مهمة الفيلسوف او المؤرخ ، فالفنان « ليس مطالبا بان يعكس الواقع بأكمله » ، وهنا فعل ذلك ، بالنسبة لفياض ، فلم يعكس التفاصيل الكاملة لنشأة فياض في دمشق وحتى صيرورته كاتباً معارضا . .

ان حنا اكتشف سلبيات الواقع في لبنان ، كما اكتشفها في دمشق . لذا فقد عالجه عبر فياض والآخرين : خليل غزالة ، ام بشير ، صاحبة مطعم النجيل ، ابو روكز ، شقيقته ، دنيز وامها ، جوزيف وهناء . . وكل الشرائح البشرية والحياتية في « الثلج » . .

لذا فان مواقف فياض ، في اختفائه ، كانت تنبع « من داخل الحدث الروائي ، او من تباين سلوك الاشخاص على نحو من العفويات الفنية الخالصة » كردود فعل ، حقيقية ، يمارس من خلال رصدها ووعي الموقف اللازم ازائها ، حريته كفنان ، ككاتب ، وكمناضل . . وان تعرية هذا الواقع ، هو وعي للضرورة ، عبر الممكن من الامور ،

ان اختيار فياض للاختفاء ، لم يكن ، منذ مجيئه الى بيروت ، اختيارا اوحدا ، بل كان فياض مشحونا بحب العمل النضالي العلني ، وهو حين غادر دمشق فلقي يتحرر من قيود الاختفاء ، لذا كان يتساءل في الحوار بينه وبين خليل ( ص ٢٢ - ٢٣ ) عن الحرية في لبنان ويؤكد له خليل : « ان اللاجئين من امثاله مطاردون لذا ينصحهم بالاختفاء ( حتى يبحث امره ويجد وسيلة لمساعدته ) :

( - لا تفادى البيت

وقال فياض في نفسه : « اذا كنت سأختبئ فلماذا جئت اذن ؟ »

وهنا يؤكد لنا حنا بان فياض لم يكن يريد حياة الدعة والهدوء والاستسلام والتفضل على الآخرين . . لقد كان فياض حرا ، حتى في اختفائه ، ومناضلا ضد الصمت والانزواء والسلبية . . فالحرية « لا تكون ابدا حرية مجردة ، فهي لا تنشأ من « العدم » والحرية الاصلية تمتد جذورها الى ثقافة الماضي وتشمل معارك الحاضر والمهام المشتركة الملصاة على عاتق بناء المستقبل ، ولا يستثنى الفنان - او الكاتب

المعارض - من هذه القاعدة « لذا فان وعي فياض ، وبالتالي وعي حنا مينه ، بالمشاركة في خلق وتجديد الانسان لنفسه باستمرار ، هذا الوعي هو « اعلى اشكال الحرية » وهو الذي دفع فياض لبغادرييت خليل وجوزيف ومصنع المسامير والمطعم وعمال البناء ، .. انه كان يريد لنفسه التجديد باستمرار .. وهذه دلالة عافية في شخصية المناضل الثوري ..

سابعا : الموناج في المنلوج .. عند حنا .. يأخذ شكلا سينمائيا ، لذا ، فالشراع والمصفاة تصلح للسنيما صلاحية « الثلج يأتي من النافذة » ، وهذه المنلوجات التي ، كان كثيرا ما يجلس « الطروسي » مواجهها البحر ، لاستعادتها ، تداعت في ذهن « فياض » بذات القوة التي يعيشها الانسان في وحدته وضيقة :

(( نزهة هناك في بلد بعيد - .. نصحتني الا يخاطر بنفسه، ولما خاطرت تركته وسافرت الى ابنتها - لا العين ترى ولا القلب يوجع - )) هربت من وجع القلب فلحقها .. - وهي تبكي الان - « فياض اختفى ياسالم ، انقطعت اخباره ! - لا تخافي عليه يا نزهة ، ياما انقطعت اخباري وعدت - « ولكنك كنت تلحق هوالك » - كله واحد .. الهوى هو دائما .. لا احد يموت قبل يومه - « وتذكرني بالموت ؟ » - (وماذا فيها ؟ سنخلد ؟ الموت حق .. مقدر ..) « انت بدون قلب » - وهذا حسن .. كنا صرنا امرأتين في بيت واحد .. ) ص ٢٧

هذا المنلوج، الذي يشتمل في داخله حوارا يتجسد بصورة واضحة للاب والام ، كما يتخيلهما « فياض ، يعني العمل الروائي بالصورة .. والابعاد .. وقد استفاد الكاتب من صور الماضي وتداعيات الزمن، لتحويل القارئ من حالة الحصار في الفرفة ، الى حالة المشاركة في الزمن ، في الاحداث ، في التاريخ .. عبر الصلات الليفية بين الناس والاشياء التي احبها فياض .. واجتته ..

ومن خلال هذه الميزة استطاع الكاتب ان يعمق ابعاد روايته، بمعطيات حياتية واجتماعية حية ، الى جانب هذا الحس الخنون باشياء الماضي، المليء بالطف والتواجد والشاعرية . وهذا جانب مضيء في حالة الاختفاء .. أيضا ..

ثامنا : ان القيم الجمالية التي طرحتها « الثلج يأتي من النافذة » تركزت - ونبتت - من تلك المواقف الداخلية لفياض وجوزيف و خليل وبقية الشخصيات الروائية ، التي تعانقت مع الاحداث، وتصاعدت معها ، حتى شكلت هي والاحداث كامل صفات اللوحة التعبيرية .. ثم انها تتبع من تلقائية تحرك الشخصيات تلك ، وعلامتها وتصرفاتها ، هذه التلقائية التي لم يظهر على الكاتب انه اصطنعها او افطنها ..

ان « المواقف الداخلية » و« اللوحات التعبيرية » جاءت متساقطة مع مجرى الاحداث ، غير غريبة عنها ، ولا هي ساذجة وسطها .. ثم هناك تلك اللفة ، كمعطي جمالي وديناميكي .. اللفة المشبعة بالحيوية والروح الشعبية ، انها مستمدة من الحياة اليومية للناس في البيت والعمل والشارع متأثرة - في جوانب معينة - بتلك الروح المسيحية السمحة والتقاليد الشعبية الموروثة في ذهن الانسان الطيب البسيط ..

فاللفة تحمل ايقاعها الخاص ، وتأثيرها الايجابي على القارئ فهي اليفة ، عند حنا ، تحسها منك ، وتحسها تخاطب وجدانك مباشرة دون حواجز .. وهذه « العامية » المهذبة الطيبة ، كالخبز والحقيقة، كانت هي الاخرى تتناغم بايقاع واحد مع الشخصيات والاحداث ، وتشكل مع « المواقف الداخلية » و« اللوحات التعبيرية » ثلاثية الجمال عند حنا ..

تاسعا : وحدة النضال ، تظهر لدى حنا في عمله الروائي ، كتركيب اساسي لجميع بنيات الرواية .

هذه الوحدة العضوية لمكونات الرواية في تركيب شخصها واحداثها ، لتحدد مسارا هادفا يخدم قضية النضال التحرري الصاعد .. وهي عند حنا لم تقتصر على « الثلج .. » بل هي امتداد « للمصاييح الزرق » و«عبر « الشراع والمصفاة » ..

وان الوحدة العضوية لشخصيات واحداث الرواية ، تنبع من توزيعات متوازنة في درجة نضالية هذه الشخصية او تلك ، بحيث انها اذا ركبت تركيبا عموديا ، على قاعدة افقية ، هي مساحة الارض والاحداث والزمن ، نجد ان قمة العمل ، هي دائما ، قمة ثورية ، ومسعى من اجل الانتصار ومن اجل مواصلة النضال .. وليس الفردي ، هنا ، منفصلا عن الجماعي ، بل يلتحم به في هذه الوحدة الاساسية من الفهم التام لمجريات الاحداث ونهوها وتركيب وبنية الشخصيات وتطورها ، لتصب في الهدف العام ..

فلقد كان « الطروسي » في « الشراع .. » بنية ، الى جانب بقية بنيات العمل الثوري ، وان كان الشخصية المحورية في العمل الروائي ، ومع انه لم يمارس عملا منظما وفي حزب سياسي ، كفياض ، لكنه يلتقي معه في ملامحه العامة :

الثورة .. هي الهدف .. فهو انسان فقير ، بطل من هذا العصر وهذا الزمان .. ليس ناتئا فيه ، ولا شاذا عنه ، او غريبا عليه .. لذا فان النموذج الثوري في « الثلج يأتي من النافذة » لم يكن « فياض » وحده ، بل هو « فياض » والاخرون ، خصوصا واحدا ، وهنا تكمن الرؤية السليمة لفهم طبيعة المرحلة ، وكيفية تحرك المناضلين داخلها لدفعها والاسهام . في تعجيل نضوج شروطها الموضوعية والذاتية للوصول بها الى درجة الانتقاد ..

عاشرا : المرأة ، كمقابل موضوعي يخلق التوازن لدى البطل، وفي مجمل الرواية . ومع ان عنصر المرأة اساسي لدى حنا ، كمرتكز .. لكننا ادرجنا النقطة هذه ، في الختام ، لاسباب فنية ..

فخلق عنصر التوازن النفسي والحياتي لدى فياض ، لم يكن النضال وحده ، بل كان ذكرى المرأة او وجودها الحسي ، المباشر ، في « الثلج .. » كما كانت بالنسبة للطروسي ، مجموع هذه التوازنات ايضا ، الحلمية في « ماريا » ، والحسية - اليومية في « ام حسن » ..

ففياض كان يحقق توازنه الوجداني ، عبر النافذة ، من خلال دينيز . كمقابل حسي - في بيت ابي خليل - والمعلمة ، فسي تذكره لطفولته ووطنه ، اي عبر نافذة الذكرى ، وتذكر قريبته التي بعثت له بقبينة العطر ، في « مصنع المسامير » ومشاهدة فتاة النافذة الاخرى ، في الجبل .

هذا التوازن ، حقق فيه حنا ، قيمة « التضاد » الحياتي ، والجمالي ، حتى في عنوان الرواية : « الثلج .. يأتي من النافذة » ولم يقل : الدفاء ، والتوازن الوجداني .. وفي المعطى الاخر ، لعنى العنوان : الخطر ، الذي يدلف من النوافذ .. مع ان هذا المعطى ، ضعيف - في التفسير المتنوع - لدلالة العنوان .. ولكن الدفاء ، يأتي ليس بذكرات الثلج ، حسب ، بل وعبر النظرات وايماءات العيون ، والترقب ، والمعنى الذي تمنحه هذه الاشياء وكثافتها في النفس البشرية .. وفي الزمن ..

اذن ، فالمرأة - العلم .. والمرأة - الحس .. والمرأة الوجدانات البريئة .. كانت عوالم اخرى ، في « الثلج .. » كما هي في « الشراع .. » - الى جانب - المقابل الاخر لطبيعة المرأة ، في كفاها وفي معاناتها الحياتية ، والمنزلية : ام بشير ، ام خليل ، زوجة خليل .. الخ .. فالمرأة هي العالم الذي يلون روايات حنا مينه بالتناغم الوجداني الحار .. ، وموقف « فياض » من دينيز ، والفتاة الاخرى ، وكل نساء « الثلج » هو موقف مثالي ، أعني انه مستمد من قيم مثالية نبيلة يتعاطاها « فياض » في معاملة المرأة حتى لو كان قد اشتهاها ..

## اغنية حب

ما اجمل هذا العالم في خدك وردا احمر

\*\*\*

يا نجمتنا المسجونة في تابوت الظلمة

لفي جيدك بالشال الاحمر

الشرفات المجروحة : ازهار تطلع في الاسلاك وفي  
الحجر العاقر

الضوء الاحمر في الشارع والاحداق المهجورة :

قنديل العابد في محراب الحب الابيض .

السكين الغارب في جسد المعشوقة في كل الازمان :

ديدان ترحل في اشجار الايدي المصفرة

يا اشعار القلب التائه في ازمان الفربة

ما اجمل هذا العالم في جيدك عقدا احمر

شفشاون ( المغرب )

عبد الكريم الطبال

يا غنوتنا المفروسة في قيثار القلب

لفي جيدك بالشال الاحمر

الدمع الفاضب : اعراس تنبت في الاطلال المسبية

القلب النازف : اطياف تصدح في عش الماسورة

الوجه المحروق : ظلال الصفصاف الشامخ في الرمل  
الشاعل

السمار المطلي بأشواق الانسان العاشق .

أنهار من فرح تجري في الفردوس الاخضر

يا منديل الشوق الطائر في اعيننا المصلوبة

عن ادراك ابعاد هذه التجربة وعيشها .. لذا كان بعيدا عن فهم  
تناقضاتها واستيعاب ابعادها وابعاد البطل في الرواية ..

وبعد هذا وذاك .. سنتظلم « الثلج يأتي من النافذة » اضافة طيبة  
للرواية العربية ، بتجربتها وتلقائيتها ، وطيبة شخصياتها .. كما  
ظلمت وستظلم « الشارع والعاصفة » محببة الى القلب وسيظل  
« الطروسي » بطلا شعيبا اثرى غيره ، حنامينه ، ابطال هذا العصر  
واضاف اليهم واحدا .. من المميزين .. ذوي الكثافة الخاصة، كما  
سنتظلم تجربة اختفاء فياض حالة نضالية دوما .

بفداد

محمد الجزائري

وبالضرورة ، فهو يحتاجها عضويا .. لكنه ، كشف عن تكران ذات ،  
وتضحية ، تكون ملازمة للاختفاء - عادة - .. كحالة نضالية ..

اذن ، فهذه الدورة النضالية ، التي مر بها « فياض » في « الثلج  
يأتي من النافذة » ، كانت اشقى دورات العمر ، واكثرها لذة ، وطراوة،  
لكاتب ، بإمكانه وهو في عز شبابه ، ان يوالي السلطات الرجعية  
ويعيش مرفها ، لكنه لم يكن الكاتب ( المحض ) ، بل كان الكاتب  
المعارض ، السياسي والمناضل والانسان .. وهذا حسبته .. وحسب  
حنا .. ان يفخر به .

ويكون مجد الرواية ، في الختام ، انها اعطت فنيا وسياسيا  
انسانيا صورة الاختفاء كاشقى حالات النضال وكونه اصعب من حياة  
السجن والمنفى ، .. واذا كان هذا الفهم قد بعد او غاب عن تناوله  
روائي مثل الاستاذ فاضل السباعي ، فلانه ، حسب تقديري ، كان بعيدا